المحاضرة السابعة : ارتباط البلاغة بالسياق والنص الأدبي بمختلف تجلياته التداولية والاستعمالية.

إن خيرما نستقرئه عن علاقة البلاغة بالسياق ، و بالتالي الأبعاد التداولية في النصوص الأدبية ، هو تر اثنا الزاخر بشتى صنوف الأصول العلمية للمباحث اللغوية ن و فيما يأتي إضاءات سريعة من بعض الورقات الناصعة ، نوصلها بالجديد المتداول في زخم المنجز الحديث .

القزويني في الإيضاح ؛ " بلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ، ومقتضى الحال مختلف ، ومقامات الكلام متفاوتة ، فمقام التنكير مباين لمقام التعريف ، ومقام الإطلاق مباين لمقام التقييد ، ومقام التقديم مباين لمقام التأخير، ومقام الذكرمباين لمقام الحذف ، ومقام الوصل لمقام الفصل ... وكذا خطاب الذكيّ مباين لخطاب الغبيّ" .

ويكشف نصّ القزويني عن علاقة النصّ بسياق الظرف وطبيعة الأحداث المر افقة للحدث الكلامي ، وكذلك علاقة السياق بطر ائق الكلام ، وأسلوب الحديث ، كما يكشف عن علاقة المستوى العقلي للمتكلّم بطبيعة الخطاب ، ومستواه العقلي كذلك. وفكرتا الحال والمقام في مفهوم البلاغيّين مرتبطتان بالبعد الزماني والمكاني للكلام ، وذلك أنّ الأمر الذي يدعوالمتكلّم إلى تقديم صياغته على وجه معيّن ، إمّا أن يتّصل بزمن هذه الصياغة فيسمّى (الحال) وإما أن يتّصل بمحلّها فيسمّى (المقام) ، ومن هنا ارتبطت فكرة الحال والمقام بالمقال ، واختلاف صورهذا المقال يعود بالضرورة إلى اختلاف الحال والمقام ، وتمتدّ فكرة المقام إلى علاقة المجاورة التي تكون بين كلمتين متتابعتين فقالوا :

" إنّ لكل كلمة مع صاحبتها مقاما" ، ويمكن ملاحظة تقارب مفهوم المقام عند البلاغيّين مع مفهوم العلاقات السياقيّة عند (دي سوسير) ، من خلال ما ذكره ابن الأثير في باب الصناعة اللفظيّة ، متدرّجا من هذا الإطار الضيّق للعلاقات السياقيّة إلى الإطار الواسع لمفهوم السياق المتّصل بالمقام؛ فصاحب الصناعة اللفظيّة يحتاج في تأليفه إلى ثلاثة أشياء؛ أوّلها:" اختيار الألفاظ المفردة ، وحكم ذلك حكم اللآلئ المبدّدة فإنّها تتخيّر وتنتقى قبل النظم وثانيها: نظم كلّ كلمة مع أختها المشاكلة لها لئلّا يجيء الكلام قلقا نافرا عن مواضعه ، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كلّ لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها.

والثالث: الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه ، وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم ، فتارة يجعل إكليلا على الرأس ، وتارة يجعل قلادة في العنق ، وتارة يجعل شنفا في الأذن ، ولكلّ موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصّه" .

وهذا نصّ يؤكد إدراك هذا البلاغي لمفهوم الامتداد الخطّي لسلسلة الكلام وأهميّة التو افق الذي يجب أن يتو افر بين عناصره ، ومن ثمّ التو افق مع السياق المحيط به والذي أسماه (الموضع) أو(الغرض)؛ فتشكيلة الكلام تتّفق مع الحدث الذي أنتج هذا الكلام. كما أنكر ابن الأثير ما كان ذهب إليه الجمهور من أهل النظر البلاغي من أنّ البيت الشعري يجب أن يكون مستقلا عن غيره من الأبيات ، و أنكر عدم جوازما يعرف بالتضمين في البيت الشعري. ورأى أنّ علاقة البيت بالبيت كعلاقة الفقرة بالفقرة ، وشبّه القصيدة بأنّها كالسبيكة الواحدة . إنّ هذه الوحدة العضويّة تعين القارئ على التفاعل مع النصّ ، وهذا التفاعل يعينه على الوقوف على مزايا النصّ ، وتنظيمه الداخلي.

ويمكن تدقيق الرؤية العربيّة القديمة لمفهوم العلاقات السياقيّة بنقلها من مستوى اللّغة إلى مستوى الأداء الفنيّ من خلال دراسة ابن سنان الخفاجي للحروف والأصوات ، وربطها بالنواحي الدلاليّة والبلاغيّة ، حيث يذكر في مقدّمة كتابه (سرّ الفصاحة) نبذا من أحكام الأصوات وحقيقتها ، وتقطيع هذه الأصوات بحيث تصير حروفا متميّزة ، وأحوال مخارجها وكيفيّة تحوّلها إلى كلام منتظم .

كما يذكر الخفاجي أنّ كلّ صناعة كمالها بخمسة أشياء. الموضوع وهوالخشب في صناعة النّجارة ، والصانع وهوالنّجار، والصورة وهي التربيع المخصوص ، والآلة مثل المنشاروالقدوم وما يجري مجراهما ، والغرض وهوأن يقصد على هذا المثال الجلوس فوق ما يصنعه- إن كان كرسيّا- وإذا كان الأمرعلى هذا ، ولا يمكن المنازعة فيه ، وكان تأليف الكلام المخصوص صناعة وجب أن نعتبر فيها هذه الأقسام" . والموضوع عنده في صناعة الكلام هوالكلام المؤلّف من الأصوات ، والصانع هوالكاتب الذي ينظم الكلام ، وأمّا الصورة فهي كالفصل للكاتب والبيت للشاعر ، وأمّا الآلة فهي طبع الناظم والعلوم التي اكتسبها ، وأمّا الغرض فبحسب الكلام المؤلّف إن كان مدحا ، وإن كان هجوا.

إنّ دراسة ابن سنان هذه تقدّم لنا صورة عن طبيعة العمليّة الإبداعية ، وأنّها ليست عفويّة ، بل إنّها اختيار منظّم يرتبط بالسّياق اللغوي الداخلي للنصّ ، ويتدرّج معه حتّى ينتظم ضمن سياق عام أومقام ، كما أنّ الأسلوب عند ابن سنان يرتبط بهذا السياق ، فالسياق هوالذي يحدّد الأسلوب ، ويستحسن هذا الأسلوب بقدرما يتّفق مع السياق" فإنّ لكلّ مقام مقالا ، ولكلّ غرض فنا ، وأسلوبا" ، كما يقول ابن سنان.

ويقف السكّاكي عند أثر (المقام) في صياغة الحدث الكلامي حين يثير موضوع (الزيادة)؛ فالزيادة كما يقول لها مقامات تستمدّ قوامها من مناسباتها ، بحيث تصادف موقعها المحمود ، فزيادة (لك) في قول الخضر لموسى عليه السلام في الكرّة الثانية (أ لم اقل لك) لاقتضاء المقام مزيد تقرير لما كان قد قدّم له من {إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً} .

وكذلك قول موسى عليه السلام {رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي}. بزيادة (لي)" لاكتساء الكلام معها من تأكيد الطلب لانشراح الصدر ما لا يكون بدونه" «15». و إنّما يقصد السكّاكي في هذا الموضع أنّ كلّ تغيير في العالم الخارجي يجد صداه في الحدث الكلامي المتّصل به ، ولعلّ هذا يذكّرنا بقولة (برتراند رسل):" إنّ علينا أن ننظر إلى كلامنا على أنّه أحداث في العالم الملموس" .

وتبدوكتب إعجاز القرآن ميدانا فسيحا تتجلّى فيه نظريّة السّياق بأوضح صورة وأعمقها. وهذه النظريّة تتناول جميع جو انب العلاقة بين النصّ والسياق. فهذا الخطّابي يرسم صورة الائتلاف بين النصّ والسياق من جهة ، وبين أجزاء النصّ نفسه في مستوياته المختلفة من جهة أخرى ، يقول : " وأمّا رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنّها لجام الألفاظ وزمام المعاني ، وبه تنتظم أجزاء الكلام ، ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان" . فالعالم الخارجي يتشكّل صورة في النفس ، ثمّ تترتّب هذه المعاني ألفاظا متّسقة متآلفة منتظمة ، يمسك بعضها ببعض ، وهذه هي رؤية الخطّابي لطبيعة التكامل بين الو اقع (سياق الحال) وسياق اللّغة.

وأمّا الباقلّاني فهو أكثر وضوحا في تحديد أثر السياق المحيط بالنصّ على اختيار ألفاظ ذلك النصّ وأسلوبه ، يقول : " إنّ اختيار اللّفظ ، وإحلاله في الموقع المناسب في السياق هو أساس البلاغة ، والإحسان في البيان ، فإنّ إحدى اللفظتين قد تنفرد في موضع ، وتزلّ عن مكان لا تزلّ عنه اللفظة الأخرى ، بل تتمكن فيه ، وتضرب بجرانها ، وتراها في مظانّها ، وتجدها غير منازعة إلى أوطانها ، وتجد الأخرى لو وضعت موضعها في محل نفار ، ومرمى شراد ، ونابية عن استقرار" . فالمقامات تحدّد اختيار الألفاظ ثمّ ترتّب هذه الألفاظ وفق تسلسل سياقيّ لغويّ داخل النص ، وأوضح الباقلّاني مسألة الاتساق الداخلي في النصّ من خلال وصفه لأسلوب القرآن بأنه قائم على الترابط والتناسب سواء فيما بين المحتوى أو تسلسل الألفاظ واطّرادها في قوالب منظومة ، تتّصل مقدماتها مع نتائجها وتتناغم موضوعاتها وتترتّب عناصرها ، وتتّصل بطريقة قائمة على التناسب في نظم الفصل والوصل .

ومن الجدير بالذكر أنّ علماء الإعجاز غالبا ما يبدءون الحديث عن إعجاز القرآن بالحديث عن بلاغة العرب ، وتمكّنهم من فنّ القول وكأنّه يشار بذلك إلى سياق الثقافة ، فقد كانت معجزة القرآن في جنس ما يمهرون ليكون التحدي أكبر وأظهر. ثم إنّهم يشيرون إلى الوقائع التاريخيّة التي نزل القرآن في سياقها ، وبعد ذلك يبدءون بالحديث عن ألوان الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم مركّزين على المخاطب ، وعلى تشكّل الآية في صورة مثلى تؤدّي إلى إبلاغ (توصيل) أسرع وأعمق و أكثر تأثيرا.

فالتّداولية إذن في أبسط تعريفاتها: دراسة للغة أثناء استعمالها واستخدامها في سياق التخاطب، تقوم على مراعاة كل ما يحيط بعملية التخاطب، للوصول إلى المعنى وإحداث الأثر المناسب، بحسب قصد صاحبه، وتبحث في الشروط اللاّزمة لضمان نجاعة الخطاب وملاءمته للموقف التّواصلي الذي يوجد فيه المتلفظ بالخطاب والسامع له.

2- نشأة التداولية وتطورها: تُشكِّل التداولية درسا جديدا وغزيرا لمّا يمتلك بعد حدودا واضحة، انبثق من التّفكير الفلسفي في اللّغة بيد أنّه سرعان ما تجاوزه ليعمل على صقل أدوات تحليله، وبخاصّة التّداولية اللّسانية موضوع حديثنا.

إنّ اللسانيات التداولية اسم جديد لطريقة قديمة في التفكير بدأت على يد" سقراط"، ثم تبعه" أرسطو" والرواقيون من بعده، بيد أنها لم تظهر إلى الوجود باعتبارها نظرية للفلسفة إلاّ على يد" باركلي"، تغذّيها طائفة من العلوم على رأسها: الفلسفة واللسانيات والأنثروبولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع[19].

فالتّداولية اللّسانية إتجاه جديد في دراسة اللغة يبحث عن حلّ لعديد من المشاكل اللغوية التي أهملتها اللسانيات ولم تهتم بها نحو(الفونولوجيا، التركيب، الدلالة)، ولذلك « يعترف كارناب Karnab، أنّ التداولية درس غزير وجديد، بل يذهب إلى أكثر من هذا بقوله: إنّها قاعدة اللسانيات»[20]. كما أنّ اللّسانيات التّداولية تشكّل محاولة جادّة للإجابة عن جملة من الأسئلة تفرض نفسها على الباحث والبحث العلمي بعامة، وعجزت اللّسانيات عن الإجابة عنها، متوسّلة في سبيل ذلك عديدا من العلوم الإنسانية والاجتماعية، وهي أسئلة من قبيل: ماذا نصنع حين نتكلّم؟ ماذا نقول بالضّبط حين نتكلم؟ من يتكلم ومع من يتكلم؟ من يتكلم ولأجل من؟ ماذا علينا أن نعلم حتى يرتفع الإبهام عن جملة أو أخرى؟ كيف يمكننا قول شيئا آخر غير الذي كنا نريد قوله؟ هل يمكن أن نركن إلى المعنى العرفي لقصد ما؟ ما هي استعمالات اللغة؟[21].

- بعض المراجع :
- (15) السكّاكي ، مفتاح العلوم ، ص 123.
- (16) جون لاينز ، اللّغة والمعنى والسياق ، ص 227.
- (17) لم ندرج كتب إعجاز القرآن ضمن ميدان علوم القرآن ، لأنّها تناولت معجزة القرآن البيانيّة بشكل أساسي ممّا يجعلها أقرب إلى ميدان البلاغة ، إن لم نقل إنها في مركز الدراسات البلاغيّة.
- (18) بيان إعجاز القرآن/ ضمن ثلاث مسائل في إعجاز القرآن الكريم للرمّاني والخطّابي والجرجاني ، تحقيق محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام ، ط 3 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1986 ، ص 36.
- (19) أبوبكر الباقلّاني ، إعجاز القرآن الكريم ، تحقيق أحمد صقر، ط 3 ، دار المعارف ، مصر، 1971 ، ص 220.
-